الوحدة الوطنية والانفتاح السياسى..

د. سيد نوفل

ذات صباح قريب ، أزعجنى نبأ نشرته الصحف بصيغة متشابهة ، هى أشبه ما تكون بصيغة البلاغات الرسمية .. وافتقدت التوضيح له أو التعقيب عليه عدة أيام . ولكنى لم أجد توضيحا ولا تعقيبا ... وحينئذ عزمت الكتابة فى موضوعه ، مستذكرا ما رأيته — منذ خمسة وأربعين عاما — يوم بدأت التحرير الصحفى .. وهو أن أشق الحرف هى الكتابة ، وأن أشق ألوان الكتابة هى الكتابة السياسية الوطنية .. لكن هذه المشقة قد يسرها فى الواقع الرئيس السادات يوم عالج الموضوع ذاته بأسلوب صريح حاسم ...

حسنى مبارك

ومهما يكن من أمر ، فقد جرى النبأ بأن السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية استقبل الكاردينال اسطفانوس الأول : بطريرك الأقباط الكاثوليك فى مصر .

« وتناول الحديث فى الاجتماع موضوع تمثيل أبناء الكنيسة القبطية الكاثوليك فى مجلس الشورى .. وذلك على أساس أن يتم اختيارهم من بين أعضاء المجلس الطائفى الذى يمثل الأقباط الكاثوليك فى مصر .. وقد تناول البحث أيضا موضوع المدارس التى تشرف عليها الكنيسة القبطية الكاثوليكية ، والتى تخرج فيها عدد كبير من المصريين ... »

كلمات قليلة تناولت ثلاثة معان حظية : تمثيل طائفة دينية معينة فى مجلس الشورى .. تحديد الاختيار بمجلس الطائفة .. عناية خاصة بمدارس الطائفة .. وهكذا تناولت السلطة التشريعية : إحدى دعائم الدولة الثلاث أو الأربع .. كما تناولت النظام التعليمى : قاعدة البناء الوطنى ..

• •

ولقد أثار النبأ فى ذهنى خواطر الماضى البعيد والوسيط ، والقريب والأقرب .. كما أثار خواطر المستقبل ..

وعن الماضى البعيد ، فقد تدعمت الوحدة المصرية منذ مئة آلاف وثمانين وعشرين عاما .. ثم زادها مينا العظيم تدعيما وتماسكا .. وظلت مصر طوال تاريخها تدفع العوادى الداخلية والخارجية على وحدتها ، وتعتصم بهذه الوحدة كقاعدة أساسية لقوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية .. وتذيب الغزاة والفاتحين فى نسيجها أو تخرجهم منه .. ولم يقل أحد ، فى عهد مينا ولا من قبله ولا من بعده ، بتمثيل معين لهم حتى البحرى أو القبلى أو لأى من طوائف الأمة وعناصرها .. فقد اتحدت جميعا وتكاملت وتكاتفت .

وعن العصر العربى الإسلامى ، لم يقل أحد ، خلال أربعة عشر قرنا من الزمان بتمثيل القوى الإسلامية المتصارعة فى فجر الإسلام وضحاه ، ولا بتمثيل الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية وسائر المذاهب الاثنى والسبعين من بعد .. وكذلك لم يقل أحد بتمثيل طوائف المسيحيين واليهود على تعدد المذاهب والفرق الدينية ..

• •

■ وعن الماضى القريب ، فقد دعمت ثورة ١٩١٩ ، بزعامة سعد زغلول ، الوحدة الوطنية .. وأزالت شوائب الاحتلال البريطانى ، وأسقطت محاولاته استغلال الأقليات لإثارة الصراع وإطالة الاستغلال الأجنبى ..

وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ باستقلال مصر ، نتيجة لنضال متصل يكن وعيد الخالق لثروت وتحالفهما صديق .. واحتفظت بريطانيا فى التصريح لنفسها بمسألة الأقليات فيما احتفظت به ، وحاولت من جديد استغلالها .. لكن مصر ، مسلمين ومسيحيين وسيرها ، قاومت المخاولات الاستعمارية .. وأكدت من جديد الإجماع على الوحدة الوطنية ، وعلى نبذ النعرات الدينية والطائفية ..

• •

ولقد دارت ، فى اجتماعات لجنة الدستور أو الثلاثين ، عام ١٩٢٣ ، مناقشات جديرة بتذكرها وتدبرها .. التى أقامتا الوحدة على أساس المعرفة بغير حق ، وبإباء الاستعمار ، وبسيان الماضى القريب ..

فقد عرض على اللجنة موضوعان هما : « امتيازات المرسلين المسيحيين بمصر » ، وقد أثاره صالح حلوم زعيم الدروز فى عهد الثورة العربية الكبرى ، وموضوع « تمثيل الأقليات » ، وقد أثاره توفيق دوس المحامى المسيحى الشهير ، رغما ألزم بالتعديلات التى سجلتها محاضر الاجتماعات ..

لم تقف لجنة الدستور طويلا عند امتيازات البدو وأنهتها الإعفاء من الخدمة العسكرية .. ووقفت الاقتراح بالإجماع وتنازل عنه صاحبه .. وكانت حجتها أن البدو نالوا هذه الامتيازات حين كانوا يقيمون فى مضارب خيامهم النائية ، ويدافعون بأمر الحكومة عن الحدود .. أما الآن فقد سكنوا المدن والقرى إلا عددا قليلا جدا .. ووقفت الوحدة الوطنية بينهم وبين سائر المصريين العرب .. والنص على إعفائهم من شرف الخدمة العسكرية إهانة لهم .. كما أن التجنيد أصبح إجباريا ، والحرب أصبحت ميكانيكية لا تعنى فيها الوسائل البدوية ..

• •

■ أما موضوع تمثيل الأقليات ، فقد وجد فى توفيق دوس أقدر المحامين .. واستفاض فى إيراد الحجج ، ما شاءت البلاغة العربية ووراثاه الفقه القانونى .. ثم قال ، ملخصا :

« إننى لا أقصد بهذا التمثيل ، والنص عليه فى الدستور ، حق امتيازات للأقباط ولا لغيرهم من الأقليات الدينية أو الجنسية فى مصر .. فإنى بطبعى أمقت التمييز وأقدس المساواة .. لكنى أقصد إلى إسقاط حجة الأجنبى الذين احتفظوا ، فى تصريح ٢٨ فبراير ، بالدفاع عن الأقليات حتى الدفاع عن الأجانب .. فإذا نص فى الدستور على تمثيلهم سقطت هذه الحجة لأنهم سيجدون من يدافع عنهم .. ثم إنه لا حظر من تمثيل هذه الأقليات .. وعددها فى مصر ضئيل لا يبلغ عشر عدد السكان .. فإذا نظروا فى الميزان بسيط فإن بضعف هذه النسبة ، لم يغير ذلك من سلطان الكثرة وما تملى عليه .. هذا وتمثيل الأقليات يكفل عدم تذمرها ، كما يكفل لها اطمئنانها بالكثرة على مر الأيام » ..

وكان فى اللجنة بطريرك الأقباط ، وكان فيها مسيحيون غير أقباط مثل القانونى الخجة إلياس عوض .. وتمسكت اللجنة بالوحدة الوطنية ، ووقفت بالإجماع تمثيل الأقليات .. وكان رأيها تعبيرا عن الصادقة وتأكيدا جديدا للرأى المصرى الإجماعى ..

وكانت مناقشات اللجنة وهذا سببا على العلم والوطنية والاستارة جميعا ..

كانت الفكرة السائدة فى اللجنة - حسب تعبير المعاصرين - هى أن دستورا يقوم على حرية الاعتقاد وحرية الرأى ، وعلى المساواة بين المصريين جميعا ، يهدم مبادئه الأساسية أى نص على تمثيل الأقليات . كما يجعل هذه الأقليات منظورا إليها على أنها غير مندمجة فى الأمة الاندماج التام . وهذا الاندماج هو الذى يجعل من هذه الأمة وحدة متماسكة البنيان ، يتمتع كل فرد من أبنائها وكل جماعة فيها بحقوق متساوية ، متساوية التكاليف والواجبات التى يلتزمون بها جميعا . أما إسقاط صبغة الاخطير ، فليس السبيل إليها النص على تمثيل الأقليات . إنما السبيل هو ما بعد ، منذ بداية الحركة الوطنية عام ١٩١٩ ، من تضامن عناصر الأمة جميعا بغير تمييز بين الأديان أو الأجناس . ويؤكد هذا أنه لم يتض دستور من الدساتير المدونة فى الأمم المتحضرة على تمثيل الأقليات ، ليتخذ حجة لأصحاب هذا الرأى ..

وعلى فكر الوحدة الوطنية التقت لجنة الثلاثين ، منذ نهاية وحتى عاما .. وبالاجماع رفضت اقتراح تمثيل الأقليات .. ولم تقف أطول من ذلك عندة ..

وحرص أبو الدستور ، عبد العزيز فهمى على حسم الموضوع إلى غير رجعة .. وعمل لإزالة كل لبس فيه . وتظهير القوانين والنظم المصرية من أية شائبة للطائفية .. فرجع إلى أحكام المعاهدات التى عقدت بعد الحرب العالمية الأولى مع بعض البلاد المتقدمة ذات الأقليات الدينية والجنسية ، وخاصة المعقودة مع بولندة .. وهى جميعا تؤكد وحدة الشعب والتزه عن جميع مظاهر الطائفية .. واقترح عبد العزيز فهمى إدماج هذه الأحكام فى المبادئ العامة للدستور ، حتى تكون التزاما وطنيا دستوريا .. ووافقت على الاقتراح اللجنة بإجماع الآراء . ومن بينها رأيا صالح حرم وتوفيق دوس ..

■ وبهذا تأكد البنيان المصرى المستقيم : من الاختيار للكفاية والوطنية وحدهما ، وليس للملة ولا الطائفة .. وضربت فى ذلك أروع الأمثال .. فاختارت الأغلبية المسلمة مكرم عبيد سكرتيرا عاما للحزب الحاكم ووزيرا للمالية ، وربما واصف رئيسا لمجلس الشعب ، وواصف غالى وزيرا للخارجية . واختارت غيرهم الكثيرين فى مختلف مستويات العمل الوطنى ..

● ●

ولو أن لبنان سلك فى عام ١٩٤٣ الطريق المصرى عام ١٩٢٣ ، ووضع الميثاق الوطنى حتى ، ولم يضع الميثاق الطائفى - لو أن لبنان فعل ذلك ما حلت الخلافات الطائفية والحروب الأهلية المتصلة ، ولما انتهى به الأمر إلى إضاعة هويته الوطنية .. حقا إن لبنان لم ينعم بالوحدة الوطنية التاريخية .. وصراعات الدروز يدعمهم البريطانيون مع الماردين يدعمهم الفرنسيون - متصلة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ومع مولد الحركة الصهيونية فى تلك الأيام فى معترك الصراع الدولى على الشرق الأوسط .. لكن الشعوب الرشيدة تستطيع التغلب على خلافات الماضى وعوامله الجاهلية القبلية والمذهبية ، وأن تبنى وحدتها فاعدة للثقوة والتقدم .. ولقد ضربت الأمة الأمريكية ، المؤلفة من مهاجرى الأمم جميعا ، فى ذلك أروع الأمثال .. ولا تزال تعمل فى دأب لتصفية جميع الآثار العنصرية والطائفية .. وبهذا أصبحت القوة العالمية الأولى ..

● ●

لكن لبنان مع الأسف الشديد كرس الطائفية بميثاق ١٩٤٣/١٠/٧ وما اتصل به من اتفاقات .. وقسم المناصب التشريعية والقضائية والتنفيذية بين الطوائف السنية والشيعية والمارونية والأرثوذكسية والكاثوليكية وغيرها حتى الأرمنية .. وكذلك جعل رئيس الدولة ماروني ورئيس الحكومة سنيا ورئيس مجلس النواب شيعيا . وعين الوزراء بطوائفهم الدينية .. والنبى الأمر

بعد رغلول

عبد العزيز فهمى

مكرم عبيد

بان تصبح لكل طائفة من هذه الطوائف دولة داخل الدولة .. فما قوتها العسكرية الخاصة ولها منطقتها المحرمة على الدولة ، والتى يأوى إليها الخارجون على القانون ولا تستطيع يد القانون أن تنالهم وأصبح الاختيار للوظائف العامة مثارا للمسخرية الداخلية والخارجية معا ..

● ●

ورأيت فى عام ١٩٦٥ السفير المصرى لدائرة فلسطين طب بطريرك لا يعرف من أمر قضية فلسطين قليلا .. ولا كثيرا .. وذلك لأن الوظيفة كانت من نصيب السنيين الذين احتاره تمثيلهم فيها ..

ورأيت فى عام ١٩٧٠ سفيرا مصريا منتدب غرق مسئول لم يبل أى مؤهل دراسى حتى التعليم الابتدائى أو الأولى أو الأساسى .. وذلك لأن المنصب كان من نصيب الشيعة الذين احتاره تمثيلهم فيها ..

وكان طبيعيا أن تظل هذه الطوائف المتصارعة المتنازعة المتاجرة بكل شىء أسباب وجودها وهويتها الوطنية .. وكان طبيعيا أن يصبح السلطان فى لبنان لقوى متصارعة غير لبنانية تشمل السورى والعراقى والليبى والفلسطينى والإسرائيلى والسوفيتى والأمريكى ..

وكان طبيعيا أن يكون المسلطون على لبنان اليوم هم ساحم ييجين وحافظ الأسد وياسر عرفات ثم جورج حبش ونظرائه .. وأن يكون الزعماء اللبنانيون قسمة ضيزى بين هؤلاء ..

■ وكانت هذه الخواطر جميعا هى مثار الأزعاج الذى ألم فى ولم أجد له دافعا ، منذ طالعت النبأ المذكور .. حقا إن مصر مخصصة بوحدتها الفريدة التاريخية فى المنطقة العربية بل فى العالم أجمع .. لكن هذه الخصائة ذاتها هى التى تدعو إلى الازعاج حين يرد فى ميدانها ما يتجافى والطبيعة المؤكدة والوحدة الخصبة ..

ومن الناحية الأخرى ، فقد طالعت بعض المسئولين منذ عامين ، عقاة تأييد الحزب الوطنى ، رأيا فى دعم التضامن الاجتماعى كقاعدة للأمن الداخلى والتنمية الاقتصادية والاجتماعية .. وكان رأيى حينذاك ولا يزال أنا يجب أن تكفل وحدة الشباب ، وابعاده عن معترك السياسة الحزبية فى مرحلة الإعداد ، وأن يكون نشاطه ثقافيا تربويا اجتماعيا حاشدا للوحدة الوطنية .. كما يجب كفالة التضامن الاجتماعى بين شطرى الأمة : المرأة والرجل .. وليس من الجميل أن تخصص المرأة بسب الجنس بأى من المزايا ، وخاصة بعد أن استكملت حقوقها .. وأصبحت تراس الرجل فى أخطر المجالات ، ومن بينها مجالا الإعلام المسموع والمنظور معا .. ولم أشاهد امرأة تخرق البحور فى مصطفى وصفية المهندس ، إلا وأيت الكثير من الرجال ! !

وتضامن الأجيال من الشباب والكهول والشيوخ والعجائز هو السبيل إلى دعم وحدة الأمة وتقوية روابطها الوثقى .. وتضامن الرجل والمرأة هو السبيل إلى المزيد من الدعم والوحدة

● ●

ويبدو أن الانفتاح السياسى الذى جاءت به ثورة التصحيح ، وإن لم يستكمل بعد ، هو السبيل إلى تمكين الوحدة الوطنية والتضامن الاجتماعى .. ويبدو أننا تقدمنا فى الانفتاح الاقتصادى أكثر مما تقدمنا فى الانفتاح السياسى ..

فثورة ١٩٥٢ قد اضطرت إلى الانعلاق على القساط الأحرار ومجلس الثورة ، ومن صادقتهم الثورة أو صادقوها من أهل الثقة أو من أطلق عليهم الثلاثون مع الثورة .. وقدر بعض المصريين قيامهم الثلاثون عليها

■ لكن ثورة التصحيح ، بقيادة السادات ، بدأت الانفتاح السياسى .. ومضت فى بناء النظام السياسى الحزبى خطوات مذكورة .. كما أعلنت أنها بسبيل تقدم أساسى يقوم على الانتخاب وليس الاختيار فى منتصف العمل ..

وهكذا فبعد أن كان الاختيار فى حدود دائرة محدودة اتسعت الدائرة وأذنت بالزوال ، وفتح أبواب الحزبية واسعة لأصحاب الاستعداد والكفاية فى مختلف المجالات ..

لقد أصبحت هنالك مجالس شعبية فى المحافظات ، وسمح المحافظون فى محافظاتهم بعض سلطات رئيس الدولة فى الوطن كله .. لكن التجربة لا تزال فى بدايتها ، ولا يزال المحافظون مع ذلك يستوعبهم لقب الوزير وكيان الماضى .. كما أن التجربة يجب أن تكون فى نطاق الوحدة الوطنية وليست على حسابها .. فالطبيعة مصر منطقها الوحدوى المفروض ..

وإذا ما تم الانفتاح السياسى ، فإن الكفاءة من المصريين فى مختلف الطوائف ، من الكثرة والأقليات ، سيجدون فى مجال العمل الوطنى متسعا للجميع ، كما قال سعد زغلول منذ خمسة وخمسين عاما خلت .. وإذا تم هذا ، فلن تكون هنالك أية شبهات من شبهات الطائفية أو الامتيازات الخاصة ..

● ●

وهنا تأتى مهمة الأحزاب فى النظام الديمقراطى السليم .. فالحزب السياسى الصالح هو الذى يشجع العناصر الصالحة .. أيا كانت وحيثما وجدت وفى مختلف الطوائف ، وتخلصها إلى مجالات الأنشطة الوطنية .. وتكون لمبادئه المحدودة المعينة .. القدرة على كسر دائرة الانغلاق السياسى

● ●

■ حينئذ ننصرف عن الحديث العقيم حول تمثيل الطوائف .. وهو حديث يتجافى مع طبيعتنا وصالحنا والزمنا ومستقبلنا ..

وحينئذ ندعم وحدتنا الوطنية وتكافلنا السياسى والدفاعى والاقتصادى والاجتماعى

وللحديث بقية أطول .. !